منهجية تدوين التاريخ الاسلامي: قراءة نقدية

(The Methodology of Writing Islamic History: A Critical Analysis)

By

فضيلة قرين / Fadila Grine*

محمد رسلان محمد نور / Mohd Roslan Mohd Nor**

Abstract

Throughout many centuries of change and development, the Islamic history continues to represent the memory reservoir of the Muslim nation with its multiple backgrounds and affiliations. The need for a critical method of the Islamic history to help us captures its diversity and richness is unavoidable. This study adopts an approach of critical analysis to examine the reasons causing a declining historical objectivity alongside a sort of a poor vision affecting the process of historical writing and codification throughout longer period of time. This research discusses the different factors that negatively affected the writing of the Islamic history and draws on the sources of the revelation in its capturing of a number of historical events and developments of previous nations. This inquiry highlights the rational justifications for interpretation of the Islamic history and the need for an integrated approach to the Islamic history. Such an approach however, is required to merge issues of chains of transmission with the need for critiquing the historical texts in addition to the use of modern science to filter and scrutinize the historical transmitted historical materials found in the Islamic heritage. This exploration would be instrumental for current research on Islamic history, particularly on the process and style of re-writing past Islamic historical themes for contemporary contexts.

***Keywords**: Islamic history, historiography, historical methodolody, criticism, Sanad.*

* Fadila Grine, PhD, Visiting Lecturer, Department of Islamic History and Civilization, Academy of Islamic Studies, University Malaya

** Mohd Roslan Mohd Nor, PhD, Senior Lecturer, Department of Islamic History and Civilization, Academy of Islamic Studies, University Malaya

ملخص البحث:

التاريخ الاسلامي ذاكرة أمة متعددة المنابت والمشارب، في قرون متباعدة وبيئات مختلفة، مما يستدعي أن يكون منهج تدوينه ملما بالتنوع الذي قد يصل إلى حد المفارقة. إنه مجموعة كبيرة من الأحداث على درجة من الأهمية تستحق القراءة الموضوعية من المؤرخين المسلمين وغير المسلمين، استعمل البحث منهج النقد والتحليل ليجيب عن أسئلة حول سبب غياب الموضوعية والضعف الذي أصاب الكتابة التاريخية خلال مراحل طويلة، ثم العوامل المباشرة التي أثرت على تدوين التاريخ الاسلامي، بالنظر إلى منهج الوحي في استرجاع الحوادث التاريخية و تاريخ الأمم السابقة، و أخيرا يعرض البحث لمبررات الدعوة إلى إعادة قراءة التاريخ الاسلامي، وخلص البحث إلى مجموعة من النتائج من أجل منهج متكامل في تدوين التاريخ الاسلامي، يجمع بين منهج السند ومنهج نقد النص، إلى جانب الوسائل العلمية الحديثة لتمحيص وتصفية التاريخ الاسلامي.

كلمات مفتاحية: التاريخ الإسلامي . التدوين . النقد التاريخي. منهج التدوين التاريخي. السند .

مقدمة

اتخذت دراسة التاريخ منذ بداية القرن الماضي خطا مختلفا، إذ لم يعد التاريخ يسجل الوقائع والأحداث التي دارت بين الدول والأمم، بل دخل التاريخ مساحة النشاطات الحضارية والانسانية، وأصبح علم التحليل والمقارنة والنقد، يُعنى بجزئيات وتفصيلات معينة خلال حقب تاريخية معينة حسب إجراءات يعرفها الباحثون في هذا المجال. وللمسلمين الأوائل فضل السبق في التدوين التاريخي والريادة في علم التاريخ وفلسفته، فالكتب التاريخية الاسلامية القديمة لا تخلو من هذا العلم، مما يدل على استيعاب المسلمين المبكر لقيمة هذا العلم وفائدته ومنهجه. وجاءت هذه الورقة لتجيب عن أسئلة متعلقة بمنهج كتابة التاريخ الاسلامي ومرجعيته والمشكلات المنهجية التي أدَّت إلى بعض الإنحراف عن الموضوعية في التدوين التاريخي. يعالج البحث منهج كتابة التاريخ عند المؤرخين المسلمين من خلال رؤية نقدية وتحليلية، مقارنة بمنهج القرآن والسنة في التعامل مع الحوادث التاريخية التاريخ.

١. حول منهجية التدوين التاريخي:

اتفق علماء التاريخ الإسلامي قديما وحديثا أن الغاية من دراسة التاريخ هي العبرة، ومردُّ هذا الاتفاق قول الله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (يوسف:١١١).[١] واسترجاع القرآن الكريم قصص السابقين في سياق الاعتبار، وتُنسب بدايات علم التاريخ عند للمسلمين، فقد أثبتت مؤلفات كثيرة بنائيةَ المنهج التاريخي من مولده إلى قمة التأليف فيه كما شهدته العصور الذهبية على يد ابن خلدون، لكن بالرغم براعة وريادة المسلمين في علم التاريخ، فإن

[١] - يقول ابن الأثير: "من فوائد التاريخ أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهي، إذا وقفوا على ما فيه من سيرة أهل الجور والعدوان، ورأوها مدونة في الكتب يتناقلها الناس، استقبحوها وأعرضوا عنها واطرحوها، وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم، وأن ممالكهم وعمرت استحسنوا ذلك ورغبوا فبه، ومنها ما يحصل للانسان من التجارب ومعرفة الحوادث وما تصير إليه عواقبها، فإنه لا يحدث أمر إلا قد تقدم هو أو نظيره، فيزداد بذلك عقلا، ويصح لأن يقتدى به أهلا" انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (بيروت، ١٩٦٥)، ج١: ص ٧.

جهودهم تفاوتت من حيث النضج العلمي الذي يرى الحقائق مجتمعة، ويحكِّم المادة التاريخية إلى معايير ومقاييس ثابتة. فإذا كانت الغاية من الدرس التاريخي أن يحتفظ بذاكرة الشعوب، فالغاية من التاريخ الاسلامي إضافة إلى ذلك هي الإجابة عن مجموعة الأسئلة المصيرية وتفسير النكبات المتكررة التي حدثت في التاريخ الاسلامي، ومن ضمن تلك الأسئلة :لماذا أخفق المسلمون في الأندلس؟ وكيف استفحل الغزو الصليبي في بيت المقدس؟ ومن المسؤول عن تدمير مكتسبات تاريخية كثيرة وضياع الخلافة؟ وعدم الإجابة عن هذه الأسئلة كان له الأثر البالغ على واقع الثقافة الإسلامية، إضافة إلى تكريس مركزيةٌ تاريخيةٌ تتجاهل تاريخ أقطار إسلامية بكاملها، وتخصتر التاريخ الإسلامي إلى جغرافية بشرية وزمنية محدودة، لا تتجاوز العالم العربي في الغالب، ويبدو النقد التاريخي ضعيفا، والتعامل مع الرواية أكثر قصورا بسبب المنهج التجزيئي، وعدم وضوح التصور الإسلامي لحركة التاريخ عند الكثير من المؤرخين، وغموض آثار العلاقة الجدلية بين القدر والحرية وقانون السببية والربط بين المقدمات والنتائج؛ وهو أمرٌ شبه غائب في الروايات التاريخية القديمة التي لا تمدنا بمنحى واضح في التحليل والتصور بسبب اعتمادها على سرد الروايات فقط. ونادرا ما يشير المؤرخ في القديم إلى القوانين والنواميس والقوانين الإجتماعية؛ هذا بالرغم من أن القرآن لفت النظر إلى ذلك، لكن المؤرخين المسلمين لم يحاولوا صياغة النظرة القرآنية للتاريخ، ولم يجمعوا صورة نظرية متكاملة الجوانب، يمكن تسميتها المنهج الاسلامي أو القرآني في تدوين التاريخ ، وقعت بعض الطفرات و محاولات يمكن أو توصف بالعبقرية، لكن جاء بعضها متأخرا جدا مثل ما هو الحال عند ابن خلدون.[٢]

إن النقص الحاصل في كتابة التاريخ الاسلامي متعدد الصور، وفي هذا السياق، يرى محمود شاكر أن الخلفية التي لدينا عن كثير من الخلفاء غير صحيحة، بل مهزوزة، بسبب أننا أخذناها من كتب ليست بذات ثقة، وكُتبت بأيدٍ مغرضة معادية للمسلمين الذين تسلَّمُوا الخلافة، سواء أكانوا راشدين أم أمويين أم عباسيين، وكثيراً ما وصلت إلينا حياة الخلفاء من جانب واحد،.. فالخليفة مثلا ليس رجلا حكمًا فقط يجلس في مركز الخلافة يُعطي الأوامر، ويجيب على الرسائل، ويتلقّى التهاني، ويستمع إلى الشعراء يكيلون له الثناء؛ إن هذا الجانب

[٢] - أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج 1، ط 1، مركز بحوث السنة والسيرة، جامعة قطر، ص 14

من ضمن الكثير من الجوانب التي دوّنت مشوهةً.فقلقدكان الخليفة إمامَ المسلمين في الصلاة، وخطيبهم في الجمع والأعياد، وقائدهم في الجهاد، والمفتي للخاصة، والمسؤول من العامة، يستنبط الأحكام، ويُناقش الفقهاء، ويتداول الرأي مع العلماء؛ لكن هذا الجانب لم يرد إلينا. [٣]

٢. الخلفية المنهجية لتدوين التاريخ الإسلامي:

يشكِّل الوحي مرجعية منهجية لتدوين التاريخ الإسلامي. فقد استرجع القرآن الكريم مواقف الأقوام والشعوب من الله تعالى والرسالات، كما استرجع أسباب ازدهار العمران وسقوط المجتمعات، كنماذج مجردة تتكرر بغض النظر عن الأمكنة والأزمنة المختلفة. وشخصُ الأنبياء في القرآن الكريم يمثل الحق ويدافع عنه في حين يمثل شخص فرعون وهامان وقارون نموذج الانسان الذي يظلم ويطغى. أما الشيطان فعدوٌّ مبين ومراوغ، لا أثر له في تحديد المواقف التاريخية وتوجيهها، لأن حركة التاريخ مسؤولية الانسان الكاملة تثبت من خلالها خياراته الواعية وسيره العاقل. وقد أرَّخ القرآن للانسانية واسترجع رصيدها من السنن في العمران والأنفس بما يكفي لتسديد الحياة وتوجيه البشريه إلى مستقبل أسلم وأرقى؛ يتم ذلك حين يتفادى الانسان أخطاء السابقين في القرون الغابرة. إننا نجد أن النبي (ﷺ) قد استعان بقصص السابقين وعبر الهالكين في تربية الأمة وإرساء نموذج القدوة كما في قول النبي (ﷺ) (لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ، ما دون عظامه من لحم أوعصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنينما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الركاب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله)، زاد بيان: (والذئب على غنمه)[٤].

والرؤية التاريخية في القرآن حاضرةٌ في كل سورة تشكل إذا ما جمعت نسقا تفسيريا متكاملا للدورة التاريخية. فقد حدد القرآن الغاية من التأريخ، ولم تأت قصصه لمجرد الترف الذهني والإثارة

---

[3] http://www.fustat.com/I_hist/muntalaq.shtml

[٤] - محمد بن إسماعيل البخاري، **الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه، ت.** محب الدين الخطيب. القاهرة: المكتبة السلفية، الطبعة الأولى،1400 هـ، ص، 3852

العاطفية؛ بل معطياتٌ تاريخيةٌ وسننٌ في العمران البشري تهدي الانسان إلى غاية الوجود، وتجنِّبه مطاب الأمم والجماعات البشرية منذ بدأ الخليقة. ويبدو منطق التاريخ في القرآن مرتبطا بالغاية، كما هو ظاهر في قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (يوسف:١١١). ذهب الطبري إلى أن الكلام لمشركي قريش، يعلمهم أن الذي جعل إخوة يوسف عبرة سيجعل منهم عبرة من أجل محمد (ﷺ)، فيخرجه من بين أظهرهم ثم يظهره ويمكن له في البلاد، ويؤيده بالجند كما فعل بيوسف عليه السلام.[٥] ولا تكاد تختلف التفاسير حول هذه الآيات، ففي الأضواء مثلا، يرى الشيخ محمد الأمين الشنقيطي أن هذه الآية في أخبار المرسلين مع أممهم، وأن الله ينجِّي المؤمنين ويهلِكُ الكافرين عبرةً وعظةً لأهل العقول[٦]. وكذلك هو الأمر في تفاسير أخرى، والتي فيها يتفق المفسرون والمؤرخون أن القَصَصَ عبرةٌ تحرك العقول والقلوب، وتدعو إلى التفكير والتأمل، وأن القرآن الكريم يعرض التاريخ بصورة يرتبط فيها الحاضر بالماضي ليؤكد غاية تعلُّم التاريخ، ولينوه أيضا بانجازات الأمم السابقة، ويعترف لهم بالقوة وكثرة العمران، لكن في نفس الوقت يذكر آفاتهم التي قضت عليهم ودمَّرتهم، لما أعرضوا عن الرسل، واستحقوا بذلك نهاية بائسة من صنع أيديهم؛ وفي ذلك تأكيدٌ لمسؤولية الشعوب عن مصيرها ومستقبلها، كما في قوله عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (غافر:٨٢). فيرى الطبري إلى أن الله يخاطب الأمم لتتعلم من الأمم الخالية وتعتبر بما حل بها[٧].

ويدعو القرآن الكريم قراءة قصص الأولين قراءة تأملية، ليحصل التداخل بين الظاهرة الفكرية والظاهرة التاريخية والعمرانية في القرآن؛ والعامل المشترك هو الانسان: موضوع الكون والقرآن والتاريخ. ومن معالم المنهج االقرآني في التاريخ الوحدة الزمنية، فالزمن في القرآن وحدةٌ متكاملةٌ، وهو ما جعل المؤرِّخين المسلمين يتعاملون معه على هذا الأساس، فالتاريخ ليس عين الماضي، بل هو الماضي والحاضر والمستقبل في آن واحد؛ والقرآن في مستقبليته يدعو إلى تأمل الماضي وتدبُّره والتعلم من دروسه، بالرغم من أنه تنبأ بالمستقبل مثل قوله تعالى ﴿أَلَمْ غُلِبَتْ الرُّومُ فِي

---

[٥] - الطبري تفسير الطبري، تفسير سورة يوسف ص ٣١٣

[٦] - أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ،محمد الأمين الشنقيطي، ط١٩٩٥، تفسير سورة يوسف

[7] -تفسير ابن كثير، دار طيبة، ط٢٠٠٢ ص ١٦٠

أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنَ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيُغْلَبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ (سورة الروم: 4-1). كما يشكِّل البعد الغيبي الذي يربط بين الحاضر والماضي والمستقبل وباقي تفاصيل الحياة بعالم الغيب، بعدا زمنيا مهمًّا في التعامل مع الأحداث التاريخية؛ إذ أنه يمكننا من خلال العرض القرآني لتاريخ البشرية أن نكتشف نماذج من المعايير والمقاييس المنهجية في التعامل مع الحادثة التاريخية بأبعادها العقدية والخلقية وبسياقها الزماني والمكاني.

وتزوِّدنا كتب الحديث والسير والمغازي بمادة دسمة في دراسة التاريخ الاسلامي، لكنها في الوقت نفسه تعزز الفلسفة القرآنية وحيثياتها المنهجية. فمثلا تتميز كتابات السيرة عند الواقدي والبلاذري بالعناية بترتيب الأحداث ترتيبا زمنيا موضوعيا في حين تظهر التجزئة للأحداث في كتابات المحدِّثين الذين التزموا بقواعد الرواية وتمييز الأسانيد، وربما قطعوا الرواية فخرَّجوا بعضها في مكان وبقيتها في مكان آخر كما هو الحال في المغازي عند البخاري، وبصورة أخف في صحيح مسلم لعنايته بالمتون.[٨] وقليلٌ من جمع بين صفة المؤرخ والمحدث مثل محمد بن اسحاق أو محمد بن جرير الطبري، فسائر من كتبَ في السيرة جمع ما أمكنه من الروايات ودوّنها من دون اشتراط الصحة، ما عدا البخاري ومسلم لاشتراطهما الصحة فيما روياه من السيرة في كتابيهما.[٩]

نلمس خلال قراءة التاريخ الإسلامي بعض الزهد في اعتبار المعايير والمقاييس القرآنية، المادية منها والمعنوية، في عملية استرجاع الحوادث وتسجيلها. فالطبري مثلا وقع في هذه المشكلة، حين كتب عن غزوة بدر دون الرجوع إلى سورة الأنفال التي اتصلت بغزوة بدر وحدَّدت مشكلاتها. فقد اقتبس الطبري مثلا القليل من السورة بما لم يغطِّ الحدث، وكذلك فعل الطبري بباقي غزوات النبي (ﷺ). وجاء ابن كثير فلم يكلف نفسه زيادة أو مراجعة، وكل ما فعله هو أنه اختصر الآيات القرآنية وروايات الطبري، فأوشك كتابه أن يخلو من أحاديث النبي (ﷺ)، معتمدا على المادة التاريخية في بناء الحدث في موضوع تكون المرجعية والمصداقية فيه رأسا للقرآن

[٨] - أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج 1، ط 1، مركز بحوث السنة والسيرة، جامعة قطر، ص 11.

[٩] - المرجع السابق، ص :11

والحديث.[١٠] مع أن كل المؤرخين المسلمين حرصوا على تحقيق العبرة، لكن المصادر التاريخية لا تحتكم إلى منهج القرآن في استرجاع التاريخ بأبعادها الزمانية والمكانية والروحية. ولا يمكن كتابة التاريخ الاسلامي وتدوين مسيرة الحضارة الاسلامية دون اعتبار لحيثيات منهج القرآن والحديث في عملية التدوين التاريخي، من أجل معايير منهجية قرآنية محكمة يحتكم إليها التدوين التاريخي.

٣. قضايا منهجية في تدوين التاريخ الاسلامي:

و من أجل أن نقف على حقيقة المشكلات المنهجية التي عنى منها تدوين التاريخ الاسلامي لا بد أن نقف على أهم المشكلات و القضايا المنهجية التي أثرت سلبا على تدوين التاريخ الاسلامي، من أجل أن تكون في دائرة وعي الباحثين ومدوني التاريخ الاسلامي في العصر الراهن، لأن عدم تسليط الضوء على تلك القضايا يجعل خطر الوقوع فيها يتكرر، والعبرة من الدراسة هي الاعتبار من أخطاء السابقين في تدوين التاريخ الاسلامي.

أ. السرد التاريخي:

يقسِّمُ شلبي التدوين التاريخي قبل سقوط الخلافة في بغداد سنة ٦٥٦هـ إلى نوعين اثنين: يتعلق الأول بسرد الحوليات من غير تعليق أو تحليل، أو البحث عن دوافعها ونتائجها القريبة أو البعيدة، وهو طريق المؤرخين القدامى الذين ألَّفوا كتبا ضخمة لسرد الأحداث تاريخية، فيحين يتعلق أما الثاني بالتحليل للرواية التاريخية من دون الاهتمام بسرد الأحداث التاريخية متتابعة، وهو أسلوب المؤرخين المحدثين الذين اهتموا بكتابة حدث واحد أو حول شخصية واحدة. ويعتقد شلبي أنه لا غنى للمنهجين عن الآخر في التدوين التاريخي، فالأحداث التاريخية من دون تحليل وفهم عملٌ ساذجٌ محدود النفع، أما فصل الحدث الواحد عن مجموع الأحداث التاريخية صورةٌ منقوصةٌ، وتدوين التاريخ على نسق تدوين الحديث بذكر الرواية والرواة من دون الاهتمام بالأسلوب جعل الدراسة التاريخية في العصر الحديث صعبة المنال ثقيلة على النفس.[١١]

---

[١٠] - أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، (القاهرة: مكتبة النهضة، ط١٤، ١٩٩٦م)، ص ٥٨

[١١] - شلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، ص 57-56.

إنَّ مشكلة السرد عويصةٌ، توارثها المؤخرون من قرون خلت، وتفاقمت النصوص والمتون التاريخية التي ورثت تاريخا يميل إلى القصة التي اقتضاها منطق السرد على حساب المنهج العلمي التاريخي، وأثَّرت ضخامة المروايات على النوعية لدرجة أن كثيرا من المؤرخين يكررون نفس المادة ولا يتفاعلون معها، وكأنه لا علاقه لهم بها، فتَرِدُ الأخبار التاريخية على شكل أسانيد ومرويات من دون زيادة أو نقصان. ومن الأمانة العلمية التسليم بأنَّ اهتمام المؤرخين في القرون الثلاثة الأولى بتدوين الأحداث وذكر الأسماء والتراجم والأسانيد إنَّما يدل على حرصهم على صدق الرواية، وتجردهم واخلاصهم في نقل الخبر من غير تفسير أو تعليل؛ لكن اتباع هذا المنهج في سائر الكتب التاريخية وعدم اعتبار الفرق بين المنهج الحديثي ومنهج التأريخ، وعدم مراعاة التطورات التاريخية، والحاجة إلى تطوير أساليب العرض، أدى إلى مشكلة في قراءة وتدوين الأخبار التاريخية التي تعامل معها المؤرخون على أساس أنَّها مروياتٌ، لتصبح مهمة المؤرخ النقلٌ المجرد لما سمع ولو كان متناقضا. ووقع المؤرخون في تقسيم الأحداث التاريخية وفق فترات سياسية، والانتقال من مرحلة تارخية إلى أخرى كان يعني سقوط سلطة أو دولة أو موت حاكم، كما في تاريخ الخلفاء، أو الدولة الأموية والعباسية، وهو تصنيفٌ يفتقر إلى الوحدة التاريخية، ويشكل عقبة في قراءة الأحداث التاريخية قراءة علمية.

ب. الهوامش والإضافات:

هناك آفةٌ أخرى لم يسلم منها تدوين التاريخ الاسلامي، وهي ممارسة تبناها أصحاب الكتب الخطِّية الذين كانوا يضيفون على الهامش والحواشي أو في أواخر الفصول والأبواب أخبارا وآراء جديدة، ثم تمرُّ الأيام وتنسخ بعض هذه الكتب، لتدخل الزيادة ضمن الأصل، ويثبتُ الشرح في المتن، ويختلط الأمر على المتأخرين، فينسب ما في النسخة الخطِّية المتأخرة إلى المؤلف، وهو نوعٌ من التدليس، المقصود وغير المقصود، عادةً ما ينسب في النسخة الخطِّية المتأخرة للمؤلف.[١٢] مما أدى إلى اختلاط النصوص الأصلية بالزيادات، وهو لا شك من المثالب التي تؤخذ على تدوين التاريخ الاسلامي.

[١٢] - محمود محمد الحويري، منهج البحث في التاريخ، ص ٢٦٤.

ت. التاريخ وعلاقته بالعلوم الإسلامية:

ظلَّ التاريخ الاسلامي وثيف الصلة بباقي العلوم والفنون الاسلامية بصورة موضوعية، لكنَّه من جهة التخصص يمكن فصله عن بقية الدراسات الاسلامية.[١٣] لكن لا يوجد ما يبرر جهل المؤرخ ببقية العلوم الاسلامية، وقد اكتملت ثقافة المؤرخين الأوائل، وجمعوا بين علوم الشريعة جميعا، ولم يهملوا الحديث أو الفقه، ولم يستغنوا عن منهج الأوصوليين، لكن ومن المؤسف أننا فصرنا إلى زمن نجد فيه أن كثيرا من المستشرقين أكثر إلماما بالعلوم الاسلامية وتكامل المعارف الاسلامية، فلم يكتبوا في التاريخ الإسلامي إلا بعد إلمامهم بالدراسات الاسلامية، بغض النظر عن النوايا السيئة والأخطاء الجسيمة التي وقعوا فيها لشدة تحيُّزهم وطبيعة المشروع الاستعماري الذين ساروا في منواله، لكنهم في الواقع كتبوا وتعمَّقوا في دراسة الحضارة الاسلامية، واستعملوا المنهج الحديث في معالجة الأحداث، في حين تكاد تفتقد هذه المزية عند المتخصصين في التاريخ الاسلامي حديثا. لكن أيضا من الجور والظلم أن ينسب إلى المستشرقين منهج النقد لأن عند المؤرخين الأوائل نماذج كثيرةٌ لنقد المتون التاريخية، وقد رفض العلماء المسلمين الأوائل والمتأخرين روايات حديثية لأنها تخالف المنطق والعقل.[١٤] و التطرف الحاصل باسم منهج نقد النص ، تعسف في فهم النصوص من طرق المستشرقين و تلامذتهم و هو نتيجة الأهواء الدينية والعنصرية، وليس فقط بسبب سوء فهم اللغة وأحكام الإسلام ونظامه ومقاصده.[١٥] لكن هذا لا يخول للمؤرخين المسلمين رفض النقد والموضوعية تقتضيه وهو منهج إسلامي أصيل، بل لا يمكن تجاهل المنهجين في تدوين التاريخ الاسلامي.

و يلاحظ على كثير من كتابات الكتَّاب والمؤرخين المسلمين أنها جاءت خلوا من تمييز الروايات وفق قواعد مصطلح الحديث، هذا بالرغم من أن كتابات المؤرخين المعاصرين تتسم بالمنهج النقدي تأثرا بالمنهج الغربي في القرنين الأخيرين؛ فهناك حاجةٌ لتكييف الرواية التاريخية الإسلامية والتي من خصوصياتها وجود السند، ومكتبة ضخمة لتراجم الرواة. لا يستطيع أحد أن ينكر القيمة العلمية والتاريخية لتلك المرويات لكن المؤسف أنها ظلّت ثروة من

---

[١٣] - شلبي، نفس المصدر، ص ٦٠.

[١٤] - انظر ضياء العمري، ص 15 وما بعدها.

[١٥] - المرجع السابق، ص 15 وما بعدها.

المعلومات بمعزل عن الكتابات التاريخية المتعلقة بتاريخ الإسلام ودراسة السيرة. أما نقد المتون و تمحيصها و مقارنتها و تحقيقيها و الذي يلتزمه المنهج التاريخي فله أهميته؛ تماما كنقد السند الذي لا تخفى أهميته، ولا بد أن تتفق المتون مع المقاييس النقدية و العقلية و النقلية على السواء، خاصَّة في تاريخ صدر الاسلام؛ الذي لا غنى لنا فيه عن منهجية السند وما حكم تفاصيل الأحداث التاريخية المتعلقة بصدر الإسلام إن لم يستعمل الباحث منهج المحدثين في نقد الأسانيد.[١٦] والكتابة التاريخية الموضوعية لا تستغني عن المنهجين.

ث.غياب البعد الواقعي:

جرّد القرآن الكريم الأحداث التاريخية من الزمان والمكان من أجل صلاح مستقبل الانسانية، فالحوادث التاريخية ينبغي أن تكتب بطريقة تجد لها علاقة مباشرة بالواقع، بحيث تجيب عن أسئلة مصيرية، أو تشرح لبسا، أوتجد تفسيرا للحوادث، أوتعلِّل خللا ومعرفة الأخطاء الخفية والجلية، واكتشاف أسرار الماضي وما وراء ضعف الأمة وتدهور ثقافتها وفساد مجتمعاتها؛ ذلك أن التاريخ أوَّل من يسأل عن سقوط حضارة. غير أن تاريخ الاسلام يحمل أخبار المد والجزر، والهزيمة والنصر، أو بتعبير الشيخ الغزالي، سجَّل التاريخ على صفحاته كما تسجِّل وكالات الأنباء خبرا عن عارضة أزياء أو مباراة شطرنج.[١٧] فالمطلوب من التاريخ الإسلامي أن يتصوَّر خطوات النبي (ﷺ) خطوةً خطوةً، و يفسرها،كيف اختار رجاله، ومن أي طينة كانوا، وكيف أعدَّهم، وما طبيعة الظروف التي أحاطت بنشأة هذه الأمة، وكيف بنى (ﷺ) دولته، وأرسى نظامها ورجالها وبيوتها وعشائرها وعلاقاتها الاجتماعية وملابساتها الاقتصادية والجغرافية والحيوية وغيرها؟ وليس للمؤرخ أن يقرر ما يسجِّل أو يهمل، كما حدث حين تجاوز بعض المؤرخين أحداثا ذات أهمية بالغة أو مرُّوا عليها مرورا تسجيليا، ولم يدونوا ما صحِبَها من تحوّلات روحية وفكرية واجتماعية وعسكرية[١٨]. كان على كتاب التاريخ الإسلامي تحليل تلك المرحلة وما قبلها، وتتبع أعمال البناء والتغيير التي قام بها الاسلام، وتفاعل نظام الإسلام مع الأفكار والعقائد والنظم الثقافية والإجتماعية السائدة، والظروف الاقتصادية والمخلفات التاريخية

---

[١٦] - المرجع السابق، ص 12.

[١٧] - محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان العقل والشرع، ص٣٦-٣٧.

[١٨] - سيد قطب، نفس المصدر، ص٥٢.

والملابسات الانسانية الكثيرة؟[١٩] لكن جاءت كتبة التاريخ الاسلامي منقطعة عن الواقع، وفي كثير من الأحيان، تهول من الأحداث، وتضخم الأرقام، وكأنها لا تحتكم إلى منطق الواقع.

ج. إهمال البعد الثقافي والاجتماعي:

ودارت معظم المدوَّنات التاريخية حول الملوك والسياسة، مع إهمال للتاريخ الاجتماعي وتفاصيل الحياة الحضارية العامة التي جاءت في الدرجة الثانية بعد الملك والعسكر، وهو خطأٌ فادحٌ وقع فيه الطبري وابن كثير والذهبي وغيرهم حين انساقوا وراء التاريخ السياسي، مما أثَّر على ضمور التاريخ الثقافي والاجتماعي، وإغفال الميادين العلمية والثقافية والاجتماعية والفنية. وقد أثار محمد عمارة سؤالا حرجا يتعلق بذلك الغموض عندما عنْوَن مقاله "هل كان تاريخنا ظلاما دامسا؟" عبَّر فيه عن قلَّة الاهتمام بالحياة العلمية والأدبية مقارنة بالحياة السياسية، وهو الأمر الذي أدَّى إلى غياب واقع الدواوين والمؤسسات والعمارة والأمصار والأسواق والخانات والمدارس والمساجد والمكتبات والتكايا والمزارات والبيمارستانات.. إلخ [٢٠]، يقول محمد عمارة:

> "لقد أدركتُ أن وراء هذه الصورة الزائفة لتاريخنا الأسلوب الخاطئ والقاصر الذي كُتِب به هذا التاريخ. ذلك أن أغلب مدونات التاريخ الإسلامي القديم منه والحديث قد سلَّطت كل الأضواء على السلطة والسلطان. ولقد غاب عن مدونات هذا التاريخ تاريخ الأمة–الذي ظلت مادته حبيسة كتب الطبقات، طبقات الفقهاء والفلاسفة والمتكلمين والمفسرين والمحدثين والقراء والأطباء والأدباء والشعراء والصوفية والزهاد والعلماء التجريبيين والمجاهدين المرابطين والصناع والحرفيين والتجار والزراعيين.. وحتى المغنِّين والموسيقيين.. إلخ."[٢١]

ح. غياب الموضوعية:

يعتبر الالتزام بالموضوعية في تدوين التاريخ الطريق الأقصر للمصداقية العلمية والتاريخية حيث تنتفي الحاجة إلى الدفاع أو لتبرير الأخطاء التاريخية، وما أكثر ما كتُِب في ردِّ دعاوى الخصوم والمغرِضين دون أن يثبت حقيقة أو يزيل لبسًا أو يرسم صورةً حقيقيةً. وكتابة التاريخ

---

[١٩] - المرجع السابق، ص٥٤

[٢٠] - مقال محمد عمارة، هل كان تاريخنا ظلاما دامسا؟ ، http://www.altareekh.com Oct 20 2011

[٢١] - المرجع السابق.

هي استعمال آليات منهجية وإحاطة بالكثير من العلوم والمعارف والحقائق العلمية والتاريخية، مع الاهتمام بالأسلوب والوسيلة التي تستعمل في تثبيت الأحداث التاريخية القديمة منها والجديدة، للتأكد من صحة ومصداقية الخبر. لكن الذي حدث هو أن مجموعة من المؤرخين وقعوا في مزالق التجميل والتمجيد والتفخيم والمحاباة والتلفيق والتغني بخصال الملوك والقادة، وغضُّوا الطرْف عن أخطاء الساسة والملوك كما هو واضح في تاريخ الممالك والملوك. فجعلوا منهم العظماء ووجهوا لأعدائهم التجريح دون حساب.

ومن عجيب الفوارق أن يحي بن خلدون[٢٢]، والذي يختلف عن أخيه عبد الرحمن ابن خلدون في منهج كتابة التاريخ، قد كتب في كتابه "بُغية الروّاد" عن نشاط السلطان أبي حمو الثاني ودون انتصارات جيوشه سببا، من دون أن يسجِّل الكثير من الوقائع والأحداث التاريخية التي نجمت عن صراع السلطان مع ابنه الأكبر أبي تشفين وما تلا ذلك من ضعف نفوذ جيوشه، واستيلاء العرب البدو على بعض أراضي الإمارة. والجزء الأوّل منه مقدمةٌ شاملةٌ لتاريخ الدولة أسهب فيه المؤرخ في وصف بلاد الزيانيين ،ومكانة تلمسان في الأحاديث النبوية، وأثر بعض الصحابة والصالحين، وفضل علمائها وأهمية الكتاب فيما جاء فيه من تراجم لمعظم علماء عصره. وفيه إسهاب في مدح الولاة والأمراء ، ونهجه نهج من عاصره في السجع وتنميق العبارات في وصف البلاط، والحديث عن السلاطين؛ لا يذكر الهزائم التي تخلَّلت الحياة السياسية والعسكرية في عهد بني زيَّان في حين اهتم أخوه ابن خلدون الشهير بالهزائم السياسية التي ألحقها المرينيون بالدولة العبادية[٢٣]، وذلك يرجع لاختلاف في فهم الأخوين للتاريخ.

وظهرت كثيرٌ من المدوَّنات التاريخية قليلةَ التحليل والتمحيص قليلة التساؤل والنقد، بحيث يورد المؤرخ مجموعة من الروايات المتناقضة متتالية من دون نقد أو تحليل، ليختار منها ما يريده من الآراء من دون دليل. ولعل ذلك ما جعل الشيخ محمد الغزالي يعتقد أن التاريخ الإسلامي كتِبَ

---

[٢٢] -يحي ابن خلدون من مواليد 1332 بتونس ، وتوفي في 1379 تلمسان وهو مؤرخ عربي .وهو شقيق المؤرخ الشهير ابن خلدون.

[٢٣] - ابن خلدون (يحي) ، بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ت. عبد الحميد حاجيات، الجزء الأوّل، المكتبة الوطنية، الجزائر، ١٩٨٠، ص ٥٩.

كتابةً طائشةً لاعلاقة لها بالإسلام مكانا ولا زمانا.[٢٤] فلا أحد يعرف حقيقة انهيار الحضارة الاسلامية ً، لأن المؤرخ كثيرا ما يمرُّ مرورا وصْفيًا، دون أن يحقق في المعطيات والمفاتيح والسنن التاريخية التي لأجلها يدرس التاريخ.

ومن الأمثلة على ذلك قصَّةُ حريق الكعبة. فقد أورد البلاذري في كتابه فتوح البلدان رواية اعتمدها، مفادها أنَّ شرارةً طارت بها الريح من خيمة أحد رجال الزبير. وفي كتاب أخبار مكة، أورد الأزرقي روايتي الطبري اللَّتين تؤكدان أن سبب الحريق شرارةٌ طارت بها الريح، وروايات أخرى تؤكدها من دون أن تشير إلى جيش بني أمية، ثم أورد روايتين متناقضتين في الكامل في التاريخ لابن الأثير تشير إحداهما إلى أن الحريق كان بسبب ضرب الكعبة من قبل الجيش الأموي، أما الثانية فأنَّ شرارةً طارت بها الريح من نار أوقدها أحد رجال ابن الزبير، واختار الرواية الثانية دون ذكرأسباب منطقية وموضوعية. أما المصدر الخامس فهو مروج الذهب للمسعودي، والذي أورد فيه روايةً واحدةً تشير إلى أن أن الجيش الأموي كان السبب في الحريق[٢٥].

خ. التعصب المذهبي:

وقع كثيرٌ من من المؤرخين في فخ المذهبية، والميل مع الطوائف؛ فالمعتزلي مثلا يمجِّدُ الاعتزال والمعتزلة ويؤرخ لهم، في حين يلعن الشيعي السنة ويشوِّه تاريخهم، إضافة إلى التعصب للمذاهب، واتهام المخالفين إلى درجة البهتان والتكفير. ومثل ذلك نجده عند عالم فاضل مثل السبكي، ففي كتابه طبقات الشافعية يأتي بالرجل من الشافعية فيمجِّدُه ويرفعُه، فيقول عن أبي المعالي الجويني مثلا: المزني قطرة من مزنه والأشعري شعرة في صدره

وينتقص من قدر ابن تيمية والبرازلي والذهبي وغيرهم، وينزلهم لشدة التعصب في دركات النار، من دون أن يذكر أي أسباب موضوعية أو دليل على رفعه الرجال أو السقوط بهم؛ وهي

---

[٢٤] - الغزالي، المرجع السابق، ص١٠٦.

[٢٥] - عبد الرحمن العشماوي، التاريخ والعوطف الهوجاء، مجلة الداعي الشهرية، دار العلوم ديوبند، جمادى الثانية ١٤٣١ هـ مايو يونيو ٢٠١٠م، العدد ٦، السنة: ٣٤.

أخطاء ناتجة عن غياب منهج مثبت في تناول الحادثة وكثيرا ما يكون المنهج عفويا عند المؤرخين.[٢٦] وجاء تاريخ دول بأكملها مشوَّهًا، فتاريخ الدولة الأموية الذي دوِّن في العهد العباسي دخله التحريف والتلفيق والكيل للخلفاء، وكثيرٌ من الخلافات السياسية في بلاط بني العباس، قد كتب من وجهة نظر أفراد كتبوا وهم يقفون في صف أو جهة سياسية أو مذهبية مع فقدان الإحاطة الموضوعية بالطرف الآخر. وتاريخ عصر المماليك بمصر[٢٧] أيضا يستدعي إعادة تدوين لما طاله من الصفحات السوداء. يقول أحمد شلبي في موسوعته إن هناك عناصر صدق تفرض نفسها، تستدعي المؤرخ أن يلتقط هذه العناصر ويجعلها أساس بحثه. فدراسة الدولة الأموية لا يمكن أن تغفل المكاسب والانتصارات والدواوين، والفكر والعمران والاصلاحات.[٢٨]

د. التأثير السياسي:

تذكركتب التاريخ قصصا عجيبة عن الفساد السياسي مما يمرُّ عليها المؤرخ مرورا عاجلا؛ فقصَّة الخليفة العباسي المستعصم بالله الذي عُرِف بشرهه وحبِّه للمال إلى درجة أنه توقف على صرف رواتب الجند حتى صاروا يلتوون من الجوع ويتسولون على أبواب المساجد في ذات الوقت الذي كان هولاكو يغير على بغداد ويعيث فيها قتلا. والسؤال هو ماذا كتب المؤرخون عن هذه الحادثة، ومن تحمَّل مسؤولية سقوط بغداد؟ أما ابن كثير فقد أرَّخ للخليفة العبَّاسي وبخله بالمال على الجند، والبذخ في الإنفاق على الخدم[٢٩]، لكنه لم يذكر الحالة الاجتماعية للعلماء من جرَّاء ذلك التقتير مكتفيا باستنتاج احتقار هولاكو للخليفة الذي تعجَّب كيف يكون للخليفة كل هذه الكنوز ثم يبخل على الجند بأرزاقهم، وكتب إلى حاكم دمشق ينذره بالتسليم ويخوِّفه من مصير الخليفة، وهذا جزءٌ من نص رسالته: "واستحضرنا خليفتها، وسألناه عن كلمات فكَذِبَ، فواقعه الندم واستوجب منا العدم، وكان له ذخائر نفيسة وكانت نفسه

---

٢٦ - انظر السبكي، طبقات الشافعية، ترجمة الأسماء المذكورة.

٢٧ م - محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي، العهد المملوكي ١٥/٧-١٧.

٢٨ - شلبي، المرجع السابق، ص ٦٣.

٢٩ - الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان العقل والشرع، ص١١٠.

خسيسة، فجمع المال ولم يعبأ بالرجال."[٣٠] إن سياق القصة حتما يثير السؤال، لكن كثيرا من كتب التاريخ التي استرجعت هذه الحادثة اكتفت بمرور الكرام، وهو ما أدَّى إلى تحمُّل التتار المسئولية الكاملة لسقوط بغداد، أو على الأقل في الكتب المدرسية والجامعية.

وقد نضج علم التاريخ كما في مقدِّمة ابن خلدون، الذي يشترط أن يكون المؤرخ عالما بطبائع العمران، حتى يتيسَّر له تمحيص الأخبار، وعدم التشيُّع، وتمييز الحق من الباطل، والصدق من الكذب، وفهم التاريخ على أنه خبر عن الاجتماع الانساني، وعمران العالم وما يعرض له من أحوال وتقلبات البشر، وسائر ما يحدث في العمران بطبيعته من أحوال[٣١]. فالمعيار عند ابن خلدون هو النظر في العمران وما يعرض له من أحوال، والتمييز في ما يلحه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضا لا يعتد به، وما لا يمكن أن يعرض له[٣٢]، مما يستدعي معرفة الفرق بين الأحوال والأعراض تماما كالطبيب الذي يشخص حالة المرض، ولا ينظر إلى الأعراض إلا من حيث أنها دالَّةٌ على الحال، وقد يكون بعضها مضلِّلا ولا يعرف ذلك إلا الطبيب الماهر. وقد انطلق ابن خلدون من قناعة أن التاريخ ليس تسجيلا للحوادث؛ لقد عني بالصيرورة أو التطور التاريخي في المقدمة، ولاحظ أن تغير أحوال الأمم وعاداتهم، واعتبر من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام وهو داء في نظره شديد الخفاء لا يُرى إلا بعد أحقاب طويلة. كما أدرك ابن خلدون أيضا أن المؤرخ في حاجة إلى معارف متعددة وحسن نظر وتثبت ليتقي المزالق والغلط، فالأخبار لا يعتمد فيها على مجرد النقل دون اعتبار لطبيعة العمران وأحوال الإجتماع الانساني واعتبار الماضي في الحاضر، ولم يغفل ابن خلدون أيضا في تواريخ الشعوب الفروق في البيئة والطبيعة والطبائع، وهو أول من أشار إلى منهج التاريخ في مقدمته: "وفي باطنه نظرٌ وتحقيقٌ، وتعليلٌ

---

[٣٠] - المرجع السابق، ص١١٢.

[٣١] - ابن خلدون، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة،١٩٦٥ ج١، ص ٤٠٩

[٣٢] - المرجع السابق،ص ٤١٣

للكائنات ومبادئها دقيقٌ، وعلمٌ بكيفيات الوقائع وأسبابها عميقٌ، فهو أصيلٌ في الحكمة عريق"[٣٣].

٤. الاستشراق والاستعمار وكتابة التاريخ الاسلامي:

هناك تعسُّفٌ في فهم المستشرقين وتأويلهم للنصوص التاريخية نتيجة الأهواء الدينية والعنصرية، وسوء فهم اللغة وأحكام الإسلام ونظامه ومقاصده.[٣٤] وبهذه المناسبة يرى سيد قطب أن سبب القصور في الكتابات التاريخية عن التاريخ الإسلامي عند المستشرقين نقص عنصر أو عناصر- في إدراك الكتابات الغربية للحياة الشرقية والحياة الاسلامية على الأخص، وهو عنصر الروحية والغيبية، وفيه يكمن الاختلاف بين طبيعتين، وسوء فهم للطبيعة الروحية أو البعد الروحي للحدث الذي يعجز الغربي عن إدراكه، خاصَّة بعد انتشار وغلبة النظريات المادية والمنهج التجريبي.[٣٥] وهي وجهة نظر لها قيمتها، إذا ما تأمَّلنا طبيعة الأخطاء التي يقع فيها المستشرقون في نظرهم للتاريخ الاسلامي، وتلك التفاصيل التي يمليها عليهم الخيال، عن تفرغ الخلفاء للهو والعبث والمجون، والأساطير المختلقة التي ألفوها عن رسول الله (ﷺ) وزوجاته، وخلفاء المسلمين وسلاطينهم، وما توهموه من أحوال وعلاقات لا وجود لها ولا دليل عليها.

وإذا كان هذا ما يفسِّر جزءا من التطرف الحاصل في فهم التاريخ الإسلامي من زاوية المستشرق البعيدة والتي تحتاج إلى وضوح الرؤية، و الأمثلة كثيرةٌ لا تكاد تحصى. فكُتُبُ الأب لامانس (Henri La Manse) وجولد تسيهر (Ignaz Goldziher) وجايتاني (Geatani) تطفح بالنظرة الاستعلائية الاستعمارية مما هو أقرب إلى الخرافة، بحيث لم تتعامل كتاباتهم مع التاريخ الاسلامي على أنه تاريخ أمَّة، بل على أساس أنه خليطٌ من الأحزاب والقبائل والطبقات والأقليات والأعراق، فكالوا التهم وأصدروا الأحكام والتفاسير الخارجة عن روح التاريخ الاسلامي[٣٦]، كما أوعز مونتغمري وات (Montgomery Watt) تفسير الحالة

---

[٣٣] -المرجع السابق،ص ٤١٣

[٣٤] - أكرم ضياء العمري، ص 118

[٣٥] - سيد قطب، ص ٣٨

[٣٦] - سمير عبده، صناعة تزييف التاريخ، (دمشق ١٩٨٩)، ص ٢١

الأساسية التي نشأ عنها الاسلام إلى التباين والصراع بين تطلعات مكة البدوية ووجهات نظرها من جهة، والبيئة المادية الجديدة التي وجدت نفسها فيها، وكأنَّه لم يرى إلا أسواق مكة وتجارتها، وهي قراءة مادية جزئية قاصرة للتاريخ الاسلامي.[٣٧] وإذا كان مونتغمري قد فسَّر التاريخ الاسلامي والأحداث تفسيرا ماديا، وجعل قرارات الرسول (ﷺ) تدور حول المصلحة الاقتصادية والحلفاء الاقتصاديين، فإنَّ الأفدح منه أن جيلا كاملا من تلامذة المستشرقين من العرب قد تجاوز المعقول في تبني هذه الآراء والدفاع عنها، كما هو الحال مع شعبان محمد عبد الحي في كتابه صدر الاسلام والدولة الأموية، حين يقع في فخ التفسير المادِّي للتاريخ ليسوِّد مائتي صفحة من دون أن يضيف شيئا سوى التأكيد على أن استراتيجية النبي (ﷺ) كانت تدور حول المصلحة الاقتصادية وكسب الحلفاء، وأن أهل المدينة عيَّنوه ليحل مشكلاتهم الاقتصادية وخلافاتهم السياسية، ولا حديث عن ايمانهم به وبرسالته.[٣٨]

لقد اتخذَّت المؤسسة الاستعمارية من البحوث العلمية وسيلةً لتشويه التاريخ الاسلامي باسم البحث العلمي، واتخذت من بعض التصريحات والوثائق التي صدرت من بعض الحكومات العربية مجالا لاذاعة ما راق لها عن دولة تحامل عليها العالم، وردد الباحثون العرب عن جهالة آراء جاحدة للتاريخ العثماني، واقترن تاريخ هذه الدولة في الذهنية العربية على الاقل بالضرائب والظلم والتعسف، إلى العزلة والفقر والجهل وحتى ضعف اللغة العربية، في حين تمثل امبراطورية نابلوين التي ولدت وماتت في عامها الحادي عشر ودفنت في واترلو (Waterloo) البطولة المطلقة، وتحمل حملة نابلوين الاستعمارية للشرق بالنسبة لهم أجمل النعوت والشعارات الانسانية. لكن هل كتب تاريخ انجازات الدولة العثمانية كما في انقاذ الجزيرة من تسلل الجيوش البرتغالية ودخول البحر الأحمر للاستيلاء على جدَّة والزحف لمكة والمدينة، وانتشارها في مناطق شاسعة لم تخضع لحكم إسلامي من قبل، وهي دولة حكمت ثلاث قارات، وكان لها جيوش لم تضاهى إلى بداية القرن التاسع عشر، تنظيما وقوة وثقافة، ونشرت هذه الدولة الاسلام في بقاع

[37] W. Montogomery Watt, Muhammed, Prophet and Statesman, London, 1961, p. 48.

[٣٨] - شعبان، محمد عبد الحي، صدر الأسلام والدولة الأموية، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٢٥-٣٨

كثيرة في أوربا، وكان ولاء العثمانيين للاسلام شديدا، واعتناقهم للاسلام طوعا لا غبار عليه، مع وقوف هذه الدولة جدارا أمام المد الصليبي قرونا، ومع عيش الأديان والثقافات المختلفة داخل الدولة العثمانية في سلام ووئام. أما العرب فإنَّ الحجاز والشام دخلتا طوعا تحت الحكم العثماني في عهد سليم الأول (١٤٦٥–١٥٢٠)، وتلقَّى العرب الحماية من الجيش البرتغالي المتربص في البحر الأحمر[٣٩]، ورصدت الدولة العثمانية الأوقاف على المسجد الأقصى وأقامت حوله الأسوار. واجتهد العثمانيون في تطبيق الشريعة، وشجَّعوا العلماء وأكرموهم، وكان للمفتي أو شيخ الاسلام مكانته وكلمته في كل إقليم.[٤٠]

لكن مع ذلك سمِّيَ الحكمُ العثماني استعمارًا واحتلالاً، وحمل اللواء أحد مستشاري عبد الناصر عام ١٩٦٢م، وإدعى أن الحكم العثماني احتلالٌ مقنَّعٌ باسم الدين، والدليل هو بعض الحركات الانفصالية التي أعلنت تمردها على الدولة العثمانية، وهي مجرد حركات تزعَّمها أصحاب عصبيات أو قوَّاد عسكريون، ولم تكن تعبر عن الأقاليم العربية مثل حركة علي بك في مصر، والممتردون الأكراد، والباشوات الأتراك، والحركة الزيدية في اليمن[٤١]؛ فهل هذا دليل كاف لطمس سبعة قرون من الحضارة والعمران، والحكم على امبراطورية عظيمة بأنها مجرد استعمار؟ نعم ذلك ما حدث لأن المشكلة أنه لم تتم تصفية التاريخ الاسلامي من أغاليط المستشرقين وخرافات المسلمين؛ ولا يزال الكثير من مادة التاريخ الاسلامي المدوَّن من المؤسسة الإستشراقية والاستعمارية، وهو أحد العلل التي تعاني منها الثقافة الاسلامية، تظهر على شكل تناقضات استغلَّها المستشرقون وكتَّاب الاستعمار لزرع الفوضى الفكرية والسياسية للأمة. لقد أهال الاستعمار التراب على ماضي شعوب وطمس بذلك الكثير من التراث الإسلامي، وملأ

---

[٣٩] - الشناوي عبد العزيز محمد، الدولة العثمانية–دولة اسلامية مفترى عليها، القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة، ج١، ١٩٨٠، ص ٢٠.

[٤٠] - المرجع السابق، ص ٢٢.

[٤١] - المرجع السابق، ص ٢٧.

الأذهان بتاريخ كتب ليفصل الأقطار الاسلامية[٤٢]. وجلب الفرنسيون للجزائر واليهود لفلسطين، وتعدَّل التاريخ ليدعم الهجرة الاستعمارية إلى الجزائر، واليهود إلى فلسطين، ودعم هجرة الصينيين والهنود إلى جزر الملايو، وأصبحت سنغافورة أغلبية من المسلمين أكثرية من الهنود والصينيين.[٤٣]

ومن جهة أخرى يعكس التدوين التاريخي الجهل بحقيقة الآخر والقصور عن إدراك أحواله، وهو عيبٌ آخر في تدوين التاريخ الاسلامي، خاصة وأن هذا الغير قد يكون خصما متربصا. يرى الغزالي أن أكثر الغارات التي قَوَّضت البنيان الحضاري للأمة كانت تشبه الزلازل المباغتة لعدم التفطن لما يدور في الجوار. فقد سقطت عواصم وضاعت أقطار وراحت الأندلس وما زالت دراسة الغير قريبة من الصفر، في حين أن الآخرين يدرسون أحوال المسلمين وتاريخهم بإمعان.[٤٤] وحتى مع اهتمام المسلمين بالآخر، فإن اهتمامهم في الغالب سطحيٌّ لا يصل إلى درجة المعرفة المستفيضة المحكمة، وهذا الجهل قد يصل إلى درجة العمى بالآخر، في الوقت الذي أصبح العالم قريةً والمعطيات العلمية والتاريخية في متناول الجميع. لكن لا يزال التاريخ الإسلامية يكتب معزولا عن الأحداث العالمية، وما زالت القصص التاريخية الإسلامية على هامش التاريخ العالمي. كما أن التخلف في مستوى النتاج الفكري الاسلامي لن يؤدي إلا إلى رضاع الأجيال من ألبان العقول الغربية التي تشبعت عبر قرون طويلة بجفاف المادية القاتلة والتمرد على القيم الروحية والانقياد للفكر الوضعي الحائر.[٤٥]

٥. الدعوة إلى مراجعة التاريخ الاسلامي:

إن مما أدى إلى دعوة مراجعة أو إعادة تدوين التاريخ الاسلامي، كل تلك النقائص ، إضافة إلى عدم اعتبار اعتبار الامتداد الجغرافي والثقافي والبشري للأمة، فالمسلمون أجناس مختلفة من

---

[٤٢] - المرجع السابق، ص١٣٥.

[٤٣] - المرجع السابق، ص١٣٥.

[٤٤] -الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان العقل والشرع، ص٣٦-٣٧.

[٤٥] - العمري، ص ٢٥.

العرب والترك والفرس وجزر المالوية، والصين وأوروبا الشرقية، وهناك مسلمون في أوربا والأمريكيتين، ورغم ذلك كله لا يزال يسمي التاريخ الاسلامي تاريخ الشرق الأوسط، لأنه في الغالب يهتمُّ بأخبار العرب، وما يمت إليهم بصلة قريبة، وهو ما يدل على غياب تاريخ الشعوب والثقافات الاسلامية الأخرى، وهو ما ذهب إليه الشيخ محمد الغزالي رحمه الله.[٤٦] وما زالت المقررات المدرسية في أنحاء العالم الإسلامي لا تدرس تاريخ الأمة، وهناك جهل فضيع بتاريخ المسلم الآخر، ولا تعرف شعوب إسلامية أخرى تاريخ بعضها، لأنه لم يكتب مجتمعا بل اهتم كل شعب بتاريخه المحلي أو الوطني.[٤٧] والمخرج من النظر الجزئي لأحداث الصدر الأول وسَرْدِ نصوصه وممارساته، يستدعي استيعاب المادة التاريخية ودروسها، وعناصر الزمان والمكان، والربط بين الجزئيات والغايات والسياقات التاريخية الكلية وتحليلها لفهم ووعي دلالتها، لتعود للمشاهد التاريخية الحياة وللأحداث معانيها لأن بعض الأحداث التاريخية غريبة وأكثرها منفصل عن سياقاته وملابساته والعناصر التي ساهمت في صنعه.[٤٨] إن المنهج الإسلامي مزيجٌ من معطيات مدرسة المحدِّثين، ومعطيات من مدرسة أصول الفقه ومنهجهم العقلي المنطقي، ومعطيات من مدرسة الطب والفلك والرياضيات ومنهجها التجريبي؛ وهذا هو الخيط الذي ارتبط في تاريخ الغرب بالإسلام كما صرَّح به غوستاف لوبون في كتابه "حضارة الغرب".[٤٩] لكن هذا المنهج الشامل لا يوجد في منهجية تدوين التاريخ الاسلامي عند المتقدمين والمتأخرين. إن منهج الجرح والتعديل ضروريٌ في الرواية التاريخية، والخبر التاريخي يخضع أيضا للعوامل المحيطة ويتأثر بمعطيات كثيرة، وبذلك يكون ابن خلدون رائدا في النقد التاريخي، لتحكيمه العقل وسنن العمران في الرواية التاريخية، ولو توفَّر لابن خلدون ما توفر لنا اليوم من وسائل البحث العلمي والمناهج الجديدة في تمحيص الخبر التاريخي لما تردد في الأخذ بها جميعا.

---

[٤٦] - الغزالي، تراثنا الفكري، ص١٠٥.

[٤٧] - المرجع السابق، ص٢٥٤- ٢٥٥.

[٤٨] - عبد الحميد أبو سليمان، "الإسلام ومستقبل الإنسانية،" طرق إحكام الرقابة على وسائل الغزو الفكري والخلقي، ج ٢: ص ١٤٣.

[٤٩] - العمري، ص 13

إن هذه الظروف هي التي دعت بعض أعلام التاريخ الإسلامي إلى الدعوة مراجعة التاريخ الاسلامي مثل أحمد شلبي، ومحمود شاكر، وعماد الدين خليل، وسيد قطب، والشيخ محمد الغزالي، ومفكرون آخرون يصعب حصرهم. لقد جاءت دعوتهم في الغالب ردَّة فعل طبيعية للمشكلات الكثيرة التي يعاني منها تدوين التاريخ الاسلامين، الذي التبس على الدراسين، واختلط فيه الغث بالسمين، في فوضى التفاصيل والسرد، ولم يعد يشكِّل خلفية موضوعية لهوية أمة. واختلفت مصطلحات دعاة إعادة كتابة التاريخ ومراجعته لكن مع بعض التأمل في طبيعة الدعوة يجد أن الباعث والهدف واحد، وأيًّا كان فإن طبيعة العصر تدعو إلى مراجعة التدوين التاريخي، لتسهيله على الدارسين، وتيسيره للأجيال بجمع الوثائق المبعثرة، ووجهات النظر المتفرقة، بحيث يعطى لكل حادثة حقَّها من المعالجة العلمية والموضوعية.

خاتمة ونتائج:

التاريخ هو قراءة متجددة للأحداث وفق المعطيات المتاحة، فقد تعين بالمعطيات الجديدة وما اكتشف من حقائق علمية التحقق من كثير مما كتب في الماضي بآليات وإمكانات محدودة حيث أصبح من السهل تحليل البقايا البشرية والأدوات والورق لإثبات العمر الحقيقي للدول والحضارات والأشخاص، ولا جدوى من الإصرار على الاحتفاظ بكم هائل من التراث التاريخي وبالإمكان إثبات أصالته وما دخل عليه من خلائط، إضافة إلى أن خدمة الحاسوب الآلي جعلت من الممكن جمع موسوعات تاريخية إسلامية تخضع لمراجعة ملايين العلماء أون لاين حيث يشارك فيها العلماء المسلمون بما توصلوا إليه نتيجة لأبحاثهم. إن ما أحدثه الاسلام من تغيير في الأمم، وما تراكم من معارف ومفاهيم وثقافات ثرية أقل ما يقال عنها أنها انسانيةٌ تعني كل إنسان على سطح الأرض. لكن الذي حدث أن موضوع التاريخ الاسلامي أصبح الماضي وما يحمله إلينا من القصص، والوقع مع الخرافة، والحقيقة مع الخيال، وحياة الرسول (ﷺ) التي هي الثروة التاريخية التربوية ما تزال حبسية تنتظر القراءة المنهجية العلمية، لتربط أجزاءها وفصولها، وتبرز الدروس الكامنة في مراحلها وأدوارها، أو يشرح طبيعة الأسوة المطلوبة منها.[٥٠] وإلى ذلك الحين لا يزال رسولنا الأكرم (ﷺ)، المبعوث رحمة للعالمين، غير معروف

[٥٠] - المرجع السابق، ص ١١٢.

بالقدر الكافي الذي يتحقق بكتابة تاريخية حصيفة، وإبراز الحصيلة الثرية من ميراث النبوة للقارئ العالمي، وبالمنهج العلمي الذي هو نفسه المنهج القرآني.

قائمة المصادر والمراجع:

١. ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** (بيروت: طبعة دار صادر، ١٩٦٥).

٢. ابن خلدون، عبد الرحمن، **المقدمة**، تحقيق علي عبد الواحد وافي (القاهرة: **طبعة** لجنة البيان العربي، ١٩٦٥).

٣. ابن خلدون، يحي، **بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ت. عبد الحميد حاجيات (الجزائر: المكتبة الوطنية، ١٩٨٠م).

٤. إسماعيل بن عمر ابن كثير ، **تفسير ابن كثير**، (دار طيبة: ب.ط، ٢٠٠٢م).

.انظر أحمد عبد الدايم محمد حسين، **الفكر التاريخي في عصر النهضة والتنوير**، (نسخة إلكترونية)، تم حملها من الموقع:http://www.altareekh.com/article بتاريخ ١٤ مارس ٢٠١٢.

٥. أحمد شلبي، **موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية**، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٠).

٦. أكرم ضياء العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، (قطر، مركز بحوث السنة والسيرة، جامعة قطر، ط1).

٧. بارنز (هاري إلمر). **تاريخ التدوين التاريخي**، ترجمة محمد عبد الرحمن برج، مراجعة د. عبد الفتاح عاشور، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٧م).

٨. تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي، طبقات الشافعية، تحقيق : د. محمود محمد الطناحي (هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٣هـ، الطبعة الثانية).

٩. عبد الرحمن العشماوي، **التاريخ والعوطف الهوجاء**، مجلة الداعي الشهرية، دار العلوم ديوبند، يونيو ٢٠١٠م، العدد ٦، السنة: ٣٤.

١٠. جوزيف نسيم يوسف، **تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها**، (القاهرة: دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٧).

١١. السخاوي محمد بن عبد الرحمن. **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ** (القاهرة: نشر القدسي، ١٣٤٩ هـ).

١٢. سمير عبده، **عن تزييف الوثائق التاريخية**، (دمشق: دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٨٩م).

١٣. سيد قطب، **في التاريخ فكرة ومنهاج** (القاهرة، دار الشروق، ط٨، ٢٠٠١).

١٤. شعبان، محمد عبد الحي، **صدر الاسلام والدولة الأموية**، (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧).

١٥. الشناوي عبد العزيز محمد، **الدولة العثمانية–دولة اسلامية مفترى عليها**، (القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٨٠).

١٦. الطبري، **تفسير الطبري**، (بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥م).

١٧. مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**. ترجمة عبد الصبور شاهين، (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٠م).

١٨. مارغوليوث (د.س). **دراسات عن المؤرخين العرب**، ترجمة د. حسين نصار (بيروت ب.ت. د. سنة نشر).

١٩. محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، تحقيق مكتب البحوث و الدراسات (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٩٥).

٢٠. محمد عبد لغني حسن، **علم التاريخ عند العرب**، (القاهرة ١٩٦١).

٢١. محمد عمارة، **هل كان تاريخنا ظلاما دامسا؟**، (نسخة إلكترونية)، تم حملها من الموقع: http://www.altareekh.com بتاريخ 24 مارس ٢٠١٢.

٢٢. محمد الغزالي، **تراثنا الفكري في ميزان العقل والشرع**، (القاهرة: دار الشروق، 1991).

٢٣. محمد الغزالي، **الغزو الثقافي يمتد في فراغنا**، (القاهرة: دار الشروق، الطبعة الثانية، 2005).

٢٤. محمود شاكر: **موسوعة التاريخ الإسلامي، العهد المملوكي**، (بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، سنة الطبع 1405 هـ).

٢٥. محمود محمد الحويري. **منهج البحث في التاريخ**، (القاهرة، المكتب المصري،، ٢٠٠١).

٢٦. هاري إلمر بارنز. **تاريخ الكتابة التاريخية**، ترجمة د. محمد عبد الرحمن برج، (القاهرة، د. ط، ١٩٨٧).

٢٧. عبد الحميد أبو سليمان، "الإسلام ومستقبل الإنسانية،" طرق إحكام الرقابة على وسائل الغزو الفكري والخلقي (جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، ١٩٨٧ م).

28. W. Montgomery Watt, Muhammed, Prophet and Statesman. London, 1961